محمد المهدي ـ محمد موسى الهادي

أبو عبد الله محمد المهدي

١٥٨ ـ ١٦٩ هـ/ ٧٧٥ ـ ٧٨٥ م

التعريف بالمهدي

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، أبو عبد الله المهدي. ولد بالحميمة من أرض الشراة في عام (١٢٦ هـ/ ٧٤٤ م)، وأمه أروى بنت منصور الحميرية[١].

نشأ في بيت الخلافة، وعني المنصور بتثقيفه، فعهد به إلى المفضل الضبّي، فمال إلى العلم والأدب. ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره، اهتم بإعداده لمنصب الخلافة بتدريبه على الحرب والإدارة، فأرسله في عدة مهمات عسكرية، كما عينه في عدد من المناصب الإدارية، وعينه في عام (١٤٧ هـ/ ٧٦٤ م) ولياً لعهده.

تزوج المهدي من ريطة بنت السفاح. اتصف بالكرم واللين والفطنة، «لا يدخله غفلة عند مخوفة، ولا يتكل في الأمور على غير ثقة، وصولاً لأرحامه، براً بأهله. ليّن الجانب، شديداً على أهل الإلحاد والزندقة، وكان يجلس للمظالم»[٢].

بويع له بالخلافة بعد وفاة المنصور، وكان في الثالثة والثلاثين من عمره[٣].

الأوضاع الداخلية في عهد المهدي

إصلاحات المهدي

تعتبر خلافة المهدي، التي استمرت زهاء عشرة أعوام، فترة انتقال بين عهد الشدة والقمع الذي ساد عهد من سبقه من خلفاء بني العباس، وعهد الاعتدال واللين الذي امتازت به أيامه وأيام من أتى بعده. وكان الناس، كما وصفهم المنصور في وصيته لابنه، ثلاثة أصناف: «فقيراً لا يرجو إلاّ غناك، وخائفاً لا يرجو إلا أمنك، ومسجوناً لا يرجو الفرج إلا منك، فإذا وُلّيتَ فأذقهم طعم الرفاهية، لا تمدد لهم كل المد»[1]. لذلك كان من الضروري أن ينتهج سياسة ليّنة تداوي الجراح والنفوس، وتجمع شمل الأمة. وامتاز عهده بالهدوء الداخلي، ممّا أفسح المجال للقيام بتنفيذ مشروعات إصلاحية.

استهل المهدي خلافته باسترضاء الناس؛ فرد الأموال التي صودرت في عهد أبيه إلى أصحابها، ثم أمر بإطلاق سراح المسجونين السياسيين، لا سيما العلويين منهم، وأعاد لهم أرزاقهم وصلاتهم، كما ساعد استيزاره ليعقوب بن داوود على زيادة التفاهم معهم[2].

وحاول استرضاء أهل الحجاز عندما حج عام (١٦٠ هـ/ ٧٧٧ م)، وكان المنصور قد عاملهم بشدة بفعل مساندتهم لحركة محمد النفس الزكية، فوزع عليهم أموالاً طائلة، وسمح بإعادة الغلال والحبوب الواردة إليهم من الشام ومصر، بعد أن كان المنصور قد قطعها عقب حركة محمد النفس الزكية، وضم إلى حرسه الخاص عدداً من الجنود الحجازيين، ووسع المسجد الحرام، كما وسع مسجد الرسول في المدينة[3].

وعمل على اكتساب مودة أهل الشام، فزار دمشق وبيت المقدس وحاول تسوية الخلافات القبلية المختلفة في بادية الشام، ووزع عليهم الأموال، وأكرم وفادة أولاد مسلمة بن عبد الملك.

وأقام المحطات على طريق مكة، وزاد ما كان قد بناه السفاح، وترك منازل المنصور التي بناها على حالها، كما بنى الأحواض التي تُملأ من الآبار لسقاية القوافل ووضع عليها الحراس لحمايتها، وأجرى على المجذومين وأهل السجون حتى يمتنعوا عن السؤال ويحولوا دون انتشار الأمراض، وبنى المدارس والمستشفيات[١]، وأقام البريد بين المدينة ومكة واليمن، واهتم بشؤون التجارة فأنشأ شبكة من الطرق التجارية جعلت من بغداد مركزاً تجارياً عالمياً، وغدت الموسيقى والشعر والحكمة والأدب من مميزات هذا العصر. وسنّ الخليفة سنة كسوة الكعبة بكسوة جديدة كل عام، وحصّن المدن، خاصة مدينة الرصافة، وعيّن الأمناء في الولايات ليوافوه بأخبار الولاة. وكان يجلس للمظالم يستمع إلى شكاوي الناس، فهو أول الخلفاء العباسيين الذين جلسوا للمظالم، وحرص على إقامة العدل بينهم، وكان يُشرك القضاة معه عند النظر في المظالم[٢]. وبلغ به الاهتمام بإقامة العدل، أنه اتخذ بيتاً له نافذة من حديد تطرح فيه القصص - عرائض الشكايات - وتجمع بعد ذلك لئلا يبقى مجال للتقديم والتأخير في سماع الظلامات[٣].

والحقيقة أن المهدي بدا، من خلال إصلاحاته، وكأنه يبتغي التكفير عن المظالم والقوة التي صبغت عهدي السفاح والمنصور ضد الأمويين والعلويين، وبالرغم من ميله إلى الحياة المترفة، إلا أنه كان يجلُّ الدين إجلالاً كبيراً، ويميل إلى اتباع السنة فلا يخالفها.

الحركات المعادية للعباسيين في عهد المهدي

حركات الزنادقة

انتشرت في المجتمع الإسلامي منذ العهد الأموي ظاهرة الزندقة، وازدادت نشاطاً وحدّة في العصر العباسي الأول. والواقع أن كلمة الزندقة أُطلقت في الأصل على أتباع الديانات المجوسية، كالزرادشتية والمانوية، ثم تدرجت فشملت الملحدين

والمتشككين في الدين من أتباع ابن ديصان ومرقيون وماني[١]، ثم اتسع هذا اللفظ ليشمل الشعوبية، وأصبح لهذا الاصطلاح، بعد ذلك، دلالات دينية ـ سياسية عامة، حين استخدمته السلطة العباسية لضرب خصومها السياسيين أو الدينيين، وأطلق، أخيراً، على بعض الخلعاء والمجّان والظرفاء[٢].

والحقيقة أن الزندقة حركة سياسية مغلّفة بإطار فكري ديني منظم، ينادي أتباعها بنشر مذهب المانوية بكل ما يحويه من عقيدة دينية وتراث فكري، باعتباره بديلاً عن التراث الإسلامي ـ العربي. وربما كمنت السياسة وراء دعوات المتفلسفين، كما كانت وراء المصادرة من جانب الدولة وحكمها، لأن الزندقة التي كانت تتستّر بستار الفلسفة، إنما كانت، في ناحية من نواحيها، ثورة مجوسية ترمي إلى هدم الدولة الإسلامية من أساسها، وإقامة الدولة الفارسية مكانها[٣].

ومن الواضح بأن الزندقة، التي يتركز عليها بحثنا، هي الحركة المانوية التي تجدّد انتعاشها بعد الفتح الإسلامي في العراق والأقاليم الفارسية، وكان سبب انتشار هذه الظاهرة في المجتمع الإسلامي إبّان العصر العباسي؛ الحرية الدينية التي تمتّع بها أصحاب الديانات بعد الفتح، مما أدّى إلى نوع من صراع الأفكار والآراء في المجتمع كانت نتيجته ظهور جماعات من المفكرين الفرس أخذوا يروّجون للحضارة الساسانية ومُثُلها، ويدعون إلى تطبيق نظمها وقيمها في المجتمع والإدارة والبلاط باعتبارها بديلاً عن الحضارة الإسلامية والنظم الإسلامية[٤]، خاصة وأن هؤلاء شعروا أن انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين لم يحقق أهدافهم المتمثلة في إقامة حكومة فارسية في مظهرها وحقيقتها، وفي سلطتها ولغتها ومعتقدها الديني، ورأوا أن ذلك لا يتحقق والإسلام في سلطانه، فأخذوا يعملون على نشر دين المانوية داخل المجتمع الإسلامي، وإحياء التراث المانوي ـ الفارسي القديم، عن طريق نشر الكتب القديمة وتعريبها عن الفارسية، مستهدفين إحلال الثقافة والفكر المانوي محل الثقافة والفكر الإسلامي[٥].

أدرك الخلفاء العباسيون مدى الخطر الذي يحدق بدينهم وبدولتهم نتيجة انتشار أفكار ومبادىء الزندقة، فهبُّوا للقضاء على هذه الدعوة المنحرفة، وأوصى المنصور ابنه المهدي بمحاربتهم.

وفعلاً اهتم الخليفة المهدي بأمر الزنادقة، فتتَّبعهم في سائر الآفاق من خلال حملات منظمة. فاستحضرهم، وقتلهم صبراً[1]. وأنشأ ديواناً خاصاً بهم سماه «ديوان الزنادقة» عيّن عليه موظفاً خاصاً هو «صاحب الزنادقة»[2] كما أمر المتكلمين بتصنيف الكتب للرد عليهم ضمن مخطط فكري لكشف أساليبهم الفكرية[3].

وتظهر شدة المهدي، وحرصه، وصرامته في تعقبُّهم، واضحة في وصيته لابنه الهادي[4].

ومما لا شك فيه بأن المهدي كان مدفوعاً في ملاحقته للزنادقة بعاملين:

الأول: ديني، بفعل أن مبادئهم القائمة على الثنوية تبطل التكاليف الشرعية، وأن تأويلهم لنصوص القرآن والحديث يخالف المعنى الطبيعي، ومناف للأصول الاعتقادية، مما يشكل خطراً جدِّياً على العقيدة الإسلامية.

الثاني: سياسي، بفعل تطور العلاقات بين العباسيين وبين العناصر الفارسية المتطرفة واتجاهها نحو التأزم.

حركة المقنّع[5]: ١٥٩ ـ ١٦١ هـ/ ٧٧٦ ـ ٧٧٨ م

استمرت الموجة الإلحادية ناشطة في عهد المهدي. فبعد الحركات التي قامت في وجه المنصور، ظهرت في عهد المهدي حركات أخرى لا تختلف أهدافها عن

سابقاتها، من بينها حركة المقنّع الخراساني الذي خرج في ناحية مرو، فادّعى الربوبية، وارتكزت حركته على الحلولية والتناسخ[١].

كان لحركة المقنع أهداف سياسية ودينية.

فمن الناحية السياسية، اتصلت هذه الحركة بشخصية الزعيم الفارسي أبو مسلم الخراساني، وهي استمرار لحركتي سنباذ والراوندية[٢]، كما اصطبغت بالصبغة العنصرية، هادفة إلى إقامة كيان فارسي على حساب الدولة العباسية. لهذا، أيد أتباع أبي مسلم، المقنّع، وانضوى المبيضة في بخارى وصغد، تحت لوائه، وساهم كل ساخط على النظام العباسي، في حركته[٣].

ومن الناحية الدينية، تأثرت تعاليم المقنّع بالمبادىء الخرمية. فأحيا تعاليم مزدك، وأبطل التكاليف الشرعية، وترافقت فكرة التناسخ، التي نادى بها، مع هدم أركان الدين الإسلامي.

تبع المقنع خلق كثير، خاصة في بخارى والصغد، وانتشر أتباعه في نواحي كش ونسف. وأخذوا يغيرون على المناطق الآمنة، فتصدى لهم عدد من القادة العباسيين، من بينهم سعيد الحرشي، الذي تمكن من هزيمتهم والقضاء عليهم، أما المقنع فقد أحرق نفسه قبل القبض عليه[٤].

حركات مختلفة

وشهد عهد المهدي عدة حركات أخرى مناهضة للحكم العباسي، إلا أنها لم تترك أثراً، وقمعها الخليفة دون عناء، منها: حركة يوسف البرم في خراسان[٥]،

وحركة عبد الله بن مروان بن محمد الأموي في بلاد الشام[١]، وحركة الخوارج بقيادة عبد السلام بن هشام اليشكري[٢].

العلاقة مع البيزنطيين

اعتلى ليو الرابع عرش الأمبراطورية البيزنطية في العام نفسه الذي اعتلى فيه المهدي الخلافة، وكانت الدلائل تشير مع بداية حكمهما، إلى أن العلاقات الحسنة سوف يكتب لها النجاح. فقد أطلق الأمبراطور سراح كل المسجونين المسلمين، ورد الخليفة المهدي على هذه المبادرة بمثلها[٢].

لكن محاولات إحلال السلام، اصطدمت بطبيعة العلاقات بين الدولتين المتصارعتين التي غلب عليها الطابع الصدامي. وأتاح استقرار الأوضاع، نسبياً، داخل الأمبراطورية البيزنطية وعلى حدودها الخارجية، للأمبراطور، أن يعمل على زيادة عديد قواته لمواجهة غزوات المسلمين، كما احتفظ بالقادة المحنكين من ذوي الخبرة والكفاءة ممن عملوا تحت إمرة والده.

انتهز الأمبراطور هذه الظروف المؤاتية، وشَّن هجوماً على سميساط في عام (١٥٩ هـ/ ٧٧٦ م)، وأسر بعض المسلمين، إلا أن المهدي أرسل أحد مواليه فأنقذ المدينة[٣]. والواقع أن هذه الحملة تعكس معنى واضحاً من جانب ليو الرابع، وهو الاستمرار في انتهاج سياسة عدائية تجاه المسلمين.

أثارت الحملة على سميساط غضب الخليفة المهدي، وقرر الرد السريع.

فأرسل جيشاً ضخماً، بقيادة عمه العباس بن محمد، توغل داخل الأراضي البيزنطية حتى وصل إلى أنقره، وفتح قلعة كاسن في كبادوكيا[1].

تكمن أهمية هذه الحملة في أنها أثبتت حضوراً إسلامياً قوياً على الأرض مقابل الحضور البيزنطي، وتُعتبر دليلاً على قوة الخلافة، رغم متاعبها الداخلية في إخماد الحركات المعادية.

استمر النشاط الإسلامي والبيزنطي محدوداً بعد ذلك، حتى نشط في منتصف عام (١٦١ هـ/ ٧٧٨ م) حين أرسل الخليفة قائده المحنك ثمامة بن الوليد على رأس جيش إسلامي كبير، أغار على مرحب والمناطق المحيطة بدابق، شمالي حلب[2].

رد الأمبراطور على هذه الغارة، فأرسل جيشاً حاصر مرعش، وفصل قوة عسكرية اعترضت تقدم ثمامة باتجاه الحدث وسيطرت على عدة قرى في المنطقة. لكن الجيش البيزنطي، فشل في دخول مرعش، وفضّل قادته رفع الحصار عنها والعودة إلى العاصمة[3].

عكست الحملة على مرعش مخاوف الخليفة الذي انتابه القلق من تزايد الخطر البيزنطي، فكان عليه أن يثبّت وجوده، وفعلاً جهّز جيشاً ضخماً عهد بقيادته إلى الحسن بن قحطبة، وأمره بغزو بلاد البيزنطيين. توغل هذا القائد في الأناضول، وحاصر دوريليوم، وأغار على المناطق المجاورة، واقترب من عمورية، ثم جلا عن المنطقة بسبب قلة الإمدادات وتناقص المؤن، ولم تحقق حملته أهدافاً ذات قيمة، إنما أكدّت حضوراً إسلامياً قوياً في المنطقة[4].

استأنف البيزنطيون نشاطهم العسكري في عام (١٦٢ هـ/ ٧٧٨ م) فأغاروا على

الحدث[1]، وجاء الرد الإسلامي في العام التالي حين غزا هارون بن المهدي الأراضي البيزنطية وفتح عدداً من الحصون أهمها سمالو[2]، ثم حدث أن واجهت بيزنطية في عام (١٦٤ هـ/٧٨١ م) صعوبتين أثرتا تأثيراً سلبياً على قدراتها:

الأولى: وفاة الأمبراطور ليو الرابع، واعتلاء زوجته إيرين عرش الأمبراطورية كوصية على ابنها القاصر قسطنطين، وقد نتج عن ذلك تململ بعض القادة[3].

الثانية: تعرضت بيزنطية، آنذاك، لثورة كبيرة في صقلية، فاضطرت إلى توزيع قواتها ما بين هذه الجزيرة والجبهة الشرقية مع المسلمين.

استغل الخليفة المهدي هذه الأوضاع القلقة، فأرسل حملة ضخمة إلى بلاد البيزنطيين بقيادة ابنه هارون وأمره بمهاجمة القسطنطينية. هاجمت الحملة أثناء توغلها المناطق الاستراتيجية في كيليكيا والأناضول بهدف السيطرة عليها. وحتى يموِّه هارون أهداف وجهة الحملة، أرسل قوة عسكرية هاجمت ثغر تراقيسيون[4]. وواصل الجيش الرئيسي زحفه نحو العاصمة متجاوزاً المقاومة التي اعترضت طريقه ومتغلباً عليها[5].

أدركت إيرين، بعد هذه التطورات العسكرية، هدف الحملة، فهبَّت للدفاع عن العاصمة، ونجحت قواتها في تطويق الجيش الإسلامي الذي أضحى أفراده في موقف حرج[6]. لكن هارون تمكَّن، بذكائه وبفضل مهارته القيادية، من الخروج من هذا المأزق، وتابع تقدمه حتى بلغ خليج القسطنطينية، وهدَّد العاصمة. ورأت إيرين نفسها في موقف صعب لا يتيح لها المساومة أو الاختيار، فخضعت مضطرة لشروط هارون وأهمها:

- تدفع إيرين للخلافة العباسية جزية سنوية تتراوح بين سبعين ألف وتسعين ألف دينار تسدد على دفعتين.

- يتم تبادل الأسرى بين الجانبين.

- تلتزم بيزنطية بفتح الأسواق للتجار المسلمين في رحلة العودة.

- تمدُّ بيزنطية الجيش الإسلامي بالمرشدين في طريق العودة.

- يسمح لأفراد الجيش الإسلامي بأن يحملوا معهم كافة الغنائم.

- يستمر الصلح مدة ثلاثة أعوام[١].

نتيجة لهذا الإنجاز، الذي حققه هارون، جعلت أباه يلقبه بـ «الرشيد»[٢].

تعتبر هذه الحملة من أهم حملات الخليفة المهدي على الجبهة البيزنطية، كما كانت خاتمة الحملات العربية - الإسلامية على البوسفور.

استمرت الهدنة بين الطرفين حتى عام (١٦٨ هـ/ ٧٨٤ م) حين نقضها البيزنطيون بعد مرور اثنين وثلاثين شهراً، فاستؤنفت الغارات الإسلامية على الأراضي البيزنطية إلاّ أنها لم تحقق أي إنجاز يُذكر حتى كانت وفاة المهدي في العام التالي.

والواقع أن الخليفة المهدي حقَّق إنجازاً كبيراً في سياسة الجهاد، أكَّدت تحول كفة الصراع في عهده إلى جانب المسلمين.

الوزارة في عهد المهدي

ازدادت صورة الوزارة وضوحاً في عهد المهدي نتيجة منح الخليفة الوزراء سلطات واسعة، واعتماده عليهم بشكل شديد[٣]. لذا كان تعيين الوزراء، يتم، في

عهده، وفقاً لكفاءتهم الإدارية والكتابية، وربما كان لدسائس الحاشية أثر في تعيين بعض الوزراء وعزلهم[1]، كما كان للوضع السياسي تأثيره المباشر في ذلك، ونذكر من وزراء المهدي:

ـ أبو عبيد الله، معاوية بن يسار، مولى الأشعريين، وكان كاتبه ونائبه قبل أن يلي الخلافة. وصرفه في عام (١٦٣ هـ/ ٧٨٠ م) نتيجة دسيسة الحاجب الربيع بن يونس[2].

ـ أبو عبد الله، يعقوب بن داوود، مولى بني سليم، استوزره بناء على دلالة الربيع بن يونس، وكان متشيعاً. وقد غلب على أمر الخليفة. ثم نكب به في عام (١٦٦ هـ/ ٧٨٣ م)[3].

ـ الفيض بن أبي صالح النيسابوري. اتصف بالكرم، والفضل، وسعة الحال، إلا أنه كان متجبراً، مترفعاً، وظل في منصبه حتى مات المهدي[4].

ولاية العهد ـ وفاة المهدي

خلع المهدي عيسى بن موسى من ولاية العهد، وعهد إلى ولديه موسى الهادي ثم هارون الرشيد على التوالي[5].

توفي المهدي لثمانٍ بقين من (شهر محرم عام ١٦٩ هـ/ شهر آب عام ٧٨٥ م) في قرية الروذ نتيجة اصطدامه بباب خربة أثناء ممارسة رياضة صيد الغزلان. وفي رواية أن إحدى جواريه، وضعت سمّاً في بعض المآكل لجارية أخرى، فأكل المهدي منه وهو لا يعلم، فمات[6].